

اللغة الأم

للشيخ توفيق عبد الرحمن بن عبد الله

ويرى المؤرخون العرب ان الاراميين من اصل واحد مع العرب البائدة او العرب العاربة ويؤكد ذلك ما ورد من ان الملك الاشوري اسرحدون (668 - 625 ق م) يشير في كتاباته الى ان حزائيل ملك العريبي اى العرب جاء خاضعا الى نينوى (1) وحزائيل اسم ارامى كما ذكر الدكتور هوميل ان الاراميين والعرب من عنصر واحد (2)

وقد تفلظت اللغة الارامية فيما بين النهرين وفارس ووادي النيل وآسيا الصغرى وشمال جزيرة العرب حتى حدود الحجاز وبقيت اللغة الرسمية

ان الجزيرة العربية هي منبت الحضارات السامية التي كيفت اقالييم الهلال الخصيب وما وراءه اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ولذلك يمكن القول بان العرب البائدة الارامية التي ترجع الى ارم بن سام بن نوح ومنهم قبائل ابراهيم الخليل هم العرب الاصليون الذين وضعوا لجميع الشعوب السامية لغتهم العربية الام وقد نزحوا حوالى اوائل الالف الثانية قبل الميلاد الى جنوب العراق واستقروا في مناطق بابل وارتباط الخليل بجزيرة العرب وبالحجاز (اى بيت الله العتيق) لم يرد في القرآن وحده بل ابرزته الكشوف الاثرية والمسنيات المقارنة حول الهجرات السامية .

1) Rogers, Cuneiform Parallels etc... p. 353

2) F. Hommel, «The Ancient Hebrew Tradition p 202

كتاب التقاليد العبرية القديمة
ولاحظ كروهمان ايضا في بحثه عن تاريخ العرب ان الاراميين هم اسلاف العرب .
Encyclopedia of Islam N.E. p. 524

(دائرة المعارف الاسلامية - الطبعة الجديدة ص 524)

الشرقية (الاكدية البابلية والاشورية) واخيرا لهجات جنوبى الجزيرة العربية وهى المعينية والسبئية والاثيوبية والعربية والامهرية والذى يدل دلالة واضحة فى نظر الكثير من خبراء اللغة واللغويات على ان العربية هى اللغة الاصلية اى لغة بدو الجزيرة العربية ما زالت الى الآن اقرب كل اللهجات المذكورة الى اللغة السامية الام .

وتعتبر هجرة الاكديين نحو الفرات فى العراق اقدم هجرة من هجرات الساميين العرب الذين انتقلوا من الجزيرة العربية الى ضفاف الفرات وقد نزحت - كما قلنا - جماعات اخرى من جزيرة العرب الى وادى النيل فى حدود الالف الرابعة قبل الميلاد ويقال باتهما حملت معها حضارة ارقى من حضارة مصر وهى التى جاءت بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية (6) التى يكون اصلها ايضا عربيا مثل الكتابة الكنعانية وعموما لغتهم مطبوعة بالطابع العربى كما يتجلى ذلك من النقوش المصرية القديمة (7) منها صورة ملونة لاسرة عربية مهاجرة من جزيرة العرب والعموريون العمالقة هم الذين اسسوا الانباطورية البابلية القديمة (وهى ثانى امباطورية سامية وقبلها الاكدية) بعد ان نزحوا من جزيره العرب منتشرين فى الشام ومن بينهم ملوكهم وفى طلبعتهم حمورابى وهو الملك السادس الذى حكم 42 سنة بين 1792 و 1750 ق . م . وهو صاحب التشريع المشهور الذى يقال بانه وضع اصالة باللغة العربية .

وقد اتلم الاشوريون ثانى امباطورية سامية وبينما اتجه الكنعانيون والعموريون والاراميون والاكديون والمكسوس نحو الشام والعراق ومصر مستهدفا بعضهم الفرات - اتجهت الى دجلة قبائل اخرى حوالى اواخر الالف الرابعة او اوائل الالف الثالثة قبل الميلاد شمالى العراق على يمين دجلة فاسست مدينة اشور وهى عاصمة اماره صغيرة على نسق دويلات المدن الاكدية جنوبى العراق وقد تكلم الاشوريون بلغة سامية قريبة من لغة الاكديين جنوبا وكتبوا بالخط

طوال قرون قبل الميلاد فى بابل وآشور وفارس ومصر والشام وبها كتب الانجيل على الارجح وقد قامت الارامية محل الكنعانية وظلت اللغة السائدة فى القرن السابع ق . م . حيث اخذت العربية تحل محلها وعزز الاستاذ دايرنجر (3) هذه النظرية مؤكدا سيادة اللغة الارامية من مصر الى آسيا الصغرى الى الهند وقد ابرز كروهان علاقة الاراميين وقبائل « العبيرو » بالعرب قائلا :

« ومن المؤكد ان العنصر البدوى فى شبه جزيرة العرب وهو على الارجح مصطلح مرادف مع تسمية آرام وعبيرو وخيرو وجد فى الاصل فى المنطقة التى تمتد بين سورية وبلاد ما بين النهرين والتى تعد اقدم مركز للساميين (4)

وكانت القبائل العربية التى نزحت من الجزيرة العربية تتكلم كلها لغة واحدة هى العربية الاصلية التى تفرعت الى لهجات احتفظت بخصائصها وسميت باللغات او اللغات السامية تمييزا لها عن اللغات الآرية والطورانية ومن مميزات اللغة السامية اصولها الثلاثية الاحرف واشتقاقها الناتج عن مجرد تغيير الحركات .

ولم يعد هنالك ريب بعد الحفريات والكشوف الاثرية ان عصر ابراهيم الخليل وهو بداية الالف الرابعة قبل العصر الحاضر (القرن التاسع عشر قبل الميلاد) هو عصر عربى لغته هى السامية العربية الام فقد انبثق الجفاف الشديد الذى اكتسح شبه جزيرة العرب عن سلسلة من الهجرات نقلت الكنعانيين والفينيقيين والعموريين العمالقة منذ ازيد من الف عام قبل عصر الخليل وقد لخص الدكتور احمد سوسة (5) فى هذه المعطيات مبرزا تفرعات اللغة السامية العربية الام الى لهجات قسمها للسنيون الى مجموعات هى السامية الغربية بعناصرها الكنعانية والفينيقية والمؤابية والعبانية والسامية الغربية الشمالية (العمورية والارامية) والسامية

3) D. Diringier the Alphabet 1948 p. 253

وقد اشار الدكتور احمد سوسة الذى ننقل عنه الى عشرات المصادر الاخرى

4) A. Grohmann, «The Arabs», the encyclopedia of Islam, New Ed. p. 525

(5) فى كتابه «العرب واليهود فى التاريخ» طبعة وزارة الاعلام العراقية 1972 .

(6) الدكتور محمد عزة دروزة « تاريخ الجنس العربى » ج 1 ص 26 .

(7) تاريخ مصر لبريستيد والحضارة المصرية لغوستاف لوبون وتاريخ المدنية المصرية لغوستاف بيكى الخ .

السينائية وهذه الابجدية هي التي تفرعت عنها ابجديات منها الفينيقية والقرطاجية والبونية واليبية والارامية والنبطية والعبرية ويندرج الشمال الافريقي في هذه المجموعة العربية لان اللغة البونية Langue punique هي اللهجة الدارجة الى اليوم في المغرب العربي وقد عثر على رخامة في البرازيل تحمل تاريخ 125 ق م . اشار اليها الدكتور البرازيلي اديلونيتو وضمنها كتابه الانتروبولوجية (9) وهي مكتوبة باللغة البونية التي تورنت مع ترجمتها العربية فلوحظ انها لا تختلف عن لهجة تونس خاصة ودارجة افريقيا الشمالية عامة وعند ما دخل الموسويون ارض كنعان وجدوا قبيلة كنعانية يتزعمها نبي كنعاني يدعى بلعام ينشر فكرة التوحيد ويتمتع بمكانة روحية سامية (10) .

وقد الف مارينوس الصوري Marinus of Tyre كتابا في الجغرافيا ووضع خارطة للعالم عام 120 للميلاد كانت تستند الى معلومات جغرافية فينيقية ويرى رولنسون (11) انه كان اول كاتب في الجغرافيا اتخذ الطريقة العلمية الرياضية في صنع الخرائط المستندة الى خطوط الطول والعرض وعليه ارتكز بطليموس :

وكان القرطاجيون مثل الفينقيين يتسمون بالكنعانيين (12) .

واخر من هاجر من الجزيرة العربية الاتباط وهم قبائل بدوية انتشرت منذ القرن السادس قبل الميلاد شرقي مملكة الاردن الحالية واقتبسوا من الاراميين ثقافتهم وتأثروا بلغتهم حتى غلبت الارامية عليهم ولهجتهم هي التي تطورت منها لغة القرآن كما ان خطهم هو خط كتبة الوحى وهو القلم النبطى المتبسط من القلم الارامى القديم .

وهكذا يمكن القول بان الساميين عرب ولفتهم التي هي اللغة الام هي اللغة العربية والنصوص كلها

المسامرى لفتحهم الاشورية وينتهى حكم اشور القديمة في نهاية مملكة بابل القديمة عام 1595 ق م . وامتد العهد الاشورى الوسيط من 1595 الى 911 ق م . والمهد الحديث من 911 الى 612 ق م . (تكونت خلال هذه الفترة انبراطورية سامية ضمت مجموع الشرق الاوسط ومن ضمنه آسيا الصغرى وسواحل ايجة ومصر والخليج العربي وعيلام وقد سقطت نينوى عام 612 ق م . وقد اهتم الاشوريون بالفنون الجميلة والادب وتركوا في خزائنه الكتب السواح الطين التي انشاها الملك اشور باتيال (669 - 626 ق م .) الذى اخضع مصر كلها لحكمه ، وقد عثر على نحو 25 الف رقيم حضارى في الحفائر حفظت في المتحف البريطانى .

اما الكلدانيون (الاراميون) فيرجع اصلهم الى شواطئ الخليج العربي جنوبى العراق وقد اسسوا رابع انبراطورية سامية دامت 73 سنة بعد سقوط نينوى وسميت سلالة بابل الحادية عشرة وكان لهم ضلع في تقوية علم الفلك وهم اول من جزا الواحد الصحيح الى ستين وقسموا اليوم الى 24 ساعة والساعة الى ستين دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية ووضعوا اول التقاويم الفلكية العالمية وعينهم اخذ فيثاغورس كما برعوا في فن التطريز ورسم الصور عليه

واعظم ملوكهم بنو خنصر (605 - 562 ق م .) الذى قضى على مملكة يهوذا وسبى اليهود الى بابل وفي هذا العصر بالذات بدا التأثير العبرى على بابل وما ورائها (8)

والكنعانيون العرب هم مخترعو الحروف الهجائية الالفبائية وعينهم نقلها الفينيقيون ثم اقتبسها من هؤلاء منذ منتصف القرن التاسع الميلادى الاغريقيون واللاتين وكتابات اللهجة الكنعانية القديمة هي حلقة الوصل بين الهيروغليفية (المكونة من خمسمائة صورة تكتب من الجهات الاربع) وبين السامرية والابجدية

(8) راجع بحثنا « الفكر الصوفى واصوله » في العدد الثالث من « اللسان العبرى » (1385 هـ 1965 م)

(9) اشار اليها الاخ الاستاذ توفيق المدنى في مجلة « تقويم المنصور » (العدد الثالث عام 1348 هـ) راجع بحثنا في مجلة اللسان العبرى عدد 3 - 1384 ص - 1965 م

(10) الاصحاح 22

(11) Rawlinson - Phoenicia p. 404, 548

(12) Univ. Jewish Encyclopedia - vol. II p. 651

مجعة على هذه الحقيقة ، اما العبرية فهي لهجة سامية متأخرة .

وقد تأكد من جهة أخرى ان اليهود هم بقايا يهوذا الذين نقلهم نبوختنصر الى بابل قبل الميلاد بستة قرون وقد تكلم الموسويون في الاصل الهيروغليفية التي دونت بها شريعة موسى ووصاياه العشر لانها كانت لغة بلاط فرعون حيث تربى موسى ولم يعثر لحد الآن على اى اثر لهذه الشريعة الموسوية الاصلية لان التوراة المتداولة اليوم ليست سوى ترجمة عبرية مشوهة مقتبسة من الارامية يرجع تاريخ هذه التوراة اليهودية التي لا علاقة لها بتوراة موسى الى عهد الاسر البابلي بعد ظهور موسى بثمانمائة سنة على ان يونس ارسل الى مائة الف او يزيدون من اهل نينوى في القرن التاسع قبل الميلاد فكان ذلك انطلاقة اولى للموسوية في ارض الاشوريين .

ويرى العالم اليهودى سيلفر (13) في كتابه « موسى والتوراة الاطية» ان التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى وحتى الوصايا العشر التي يكاد يجع العلماء انها الشيء الوحيد المتبقى من التوراة الاصلية لم يكن يكملها وعلى هيئتها الحالية كالتى اتى بها موسى

وظاهرة التشويه في هذه التوراة المزيفة اشتغالها على شرائع وتقاليده وطقوس دينية مقتبسة من الشرائع الكنعانية والبابلية وخاصة شريعة حمورابي كما ابرز ذلك البروفيسور ووتر من استنادا الى تحقيقات اركيولوجية على ان مزامير داود نفسها مشوهة وكذلك كل ما ورد في العهد القديم لغلبة الطابع الكنعانى العربى عليه حتى من حيث اللفظة اذ لم تترجم الى العبرية مدرجة في التوراة الا في عصور لاحقة فاللفظة العبرية لم تكن اذن من اصول اللهجات السامية بل ليست هي نفسها سوى اقتباس من الارامية حفظت لنا كثيرا من مظاهر الحضارة الكنعانية العربية .

وقد اكد الكاتب الفرنسى جان لوى برنارد I. L. Bernard ان الاحبار عبرنوا كل ما اقتبسوه من تواريخ الاقطار

التي جاسوا خلالها ومنها سليمان الذى لم يكن يهوديا وانما كان اشوريا وهو شلما نصر ولو كان سليمان يهوديا لاستحالت - كما يؤكد برنار - الصداقة مع ملكة سبأ العربية بل اكد بروكلمن ان هؤلاء اليهود قد تعمدوا اقتناء الكنعانيين من جدول انساب سام اى من السلالة السامية .

ويرى بعضهم ان اسم يهوه اله اليهود نفسه هو اسم احد آلهة البدو الشماليين في جزيرة العرب وكان الكاهن الكنعانى ملك اورشليم يدين بالتوحيد كما كانت لغة داود وسليمان هي الكنعانية العربية التى اقتبسها الموسويون من بنى كنعان بعد دخولهم ارض فلسطين فكانت هذه المعطيات الكنعانية لغة وحضارة هي قوام التراث العربى وفي ضمنه التوراة الجديدة وقد سقى النبى اشعيا في القرن الثامن قبل الميلاد اللثة كلها وفي ضمنها العبرية شفة كنعان اى لسان كنعان كما يقول مندنهول استاذ جامعة ميسيسفان الامريكية بنقل الدكتور سوسة على ان كلمة « عبرى » نفسها ومثلها « عبرو » او « خيرو » قد وردت في الكتابات القديمة وكان يراد بالعبريين القبائل البدوية العربية وبذلك يوجه وصف ابراهيم الخليل في التوراة بالعبرانى ويؤكد هذه الحقيقة ما ورد في دائرة المعارف البريطانية (14) من ان استعمال كلمة عبرى بمعنى يهودى يرجع الى الحاخامين بفلسطين في عهد متأخر على انه تم العثور على كتابة من عهد رعمسيس الثانى وهو فرعون الذى وقع الخروج Exode في عهده سميت فيها بقايا الهكسوس بـ « العبريو » والمقصود هنا القبائل العربية البدوية وهى التسمية التى عرف بها الهكسوس عند المصريين واسرائيل نفسها كلمة كنعانية عربية اطلقت على موضع في فلسطين واشتارت اليها في هذا السياق كتابات مصرية قبل بعثة سيدنا ارض فلسطين الكنعانية العربية هي مهجر لحفدة يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم اغتربوا اليها نازحين من حاران او حران الحالية .

وكثير من التعابير والاسماء التى يظن انها عبرية الاصل هي في الحقيقة عربية تذكر منها على سبيل

(13) A. H. Silver «Moses and the original Torath N.V, 1961

وقد اشار الدكتور احمد سوسة ايضا الى مرجع آخر هو « الاسس التاريخية للمعتقد اليهودية » 1969 ص 8 .

(14) طبعة 1965 ج 11 ص 279

منها جميع هذه اللغات هي على اغلب الاحتمالات اقدم لغة في العالم ما زالت حية حتى يومنا هذا .

وقد لاحظ الدكتور جواد على في كتابه « الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » (ج 1 ص 255) ان جماعة من المستشرقين ترى ان اللغة العربية على حدائث عهدا بالنسبة الى اللغات السامية الاخرى هي انسب اللغات السامية الباقية للدراسة لانها لغة لم تختلط كثيرا باللغات الاخرى فبقيت في مواطنها المعزولة اصنى من غيرها محافظة على خواص السامية القديمة

وقال فيلبي في كتابه « تاريخ العرب قبيل الاسلام » (الاستكبرية 1947 ص 9) : « اننى اعتبر بلاد العرب الجنوبية (ومن ضمنها اليمن) هي الوطن الاصلى لهذا الجنس من البشر المعروف الآن باسم الساميين وهو يمتاز عن سائر الشعوب بلغته المعروفة باسم اللغة العربية » ثم لاحظ انهم هاجروا بسبب الجفاف الذى ظهرت بوادره بعد العصر الباليوليثى وهو العصر الحجري القديم الذى يبدأ قبل 35 الف سنة نحو الشمال الى اطراف الهلال الخصيب .

وايد الاستاذ فيلبي خبير انثروبولوجى آخر هو الدكتور هنرى فيلد ملاحظا « ان اليمن وعدن كانتا مأهولين بالسكان في العصر النيولوثى (وهو العصر الحجري الحديث المحدد بين 7000 و 5000 ق م) . هاجر منهم الى عمان والخليج وآخر الى الصومال وكينيا وتنجانيقا وفريق ثالث الى نجران وسيناء وفلسطين .

وقد لاحظ الرحالة الالماني شوينفرت ان القمح والشعير والجاوس والمعز والضأن والماشية وجدت في حالتها لابتدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل ان تستانس في مصر والعراق (18) .

المثال فقط تسمية اورشليم (اى القدس) التى وردت في الكتابات الكنعانية اى رسائل العمارنة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد (اى قبل عصر موسى بنحو مائتى سنة) وقبل ظهور العبرية ومدوناتها ومنها توراة اليهود (لا توراة موسى) بأزيد من الف عام وقد ورد ذكرها عبر الشعر الجاهلى في شبل اورشلم كما اعترفت التوراة نفسها في نص صريح بعدم وجود اية صلة بين اليهود وهذه المدينة (15)

و « موسى » اسم مضرى قديم لا صلة له بالعبرية ولا بالعبريين وقد ورد ذلك احد فراغة مصر باسم « آح - موسى » وهو مؤسس السلالة الثانية عشرة (1580 - 1546 ق م) كما ان الكاهن الاعلى لمدينة ممفيس عاصمة مصر المشهورة في عهد تحوتمس الثالث (1479 - 1447 ق م) كان يدعى « بتاج موسى » (16)

ونشر فيما يلى بعض النصوص التى تشهد بعروبة الساميين :

فقد اكد سبرنجر Sprenger ان جميع الساميين عرب (17) :

وقال الاستاذ اولستيد في كتابه « تاريخ فلسطين » (ص 36) : « ان البدو العرب كانوا اول من تكلم باللغة السامية واذا اردنا ان نتقهم الخصائص الاصلية لهذه المجموعة من اللغات السامية على حقيقتها فعلى ان نتجه الى العربى ابن البادية السورية الذى يجوب شمال جزيرة العرب لان هؤلاء وحدهم حافظوا على العادات والتقاليد القديمة دون ان يطرا عليها اى تغيير » وقد ايد المستشرق عبد الله فلبى في كتابه « تاريخ العرب قبيل الاسلام » حيث قال : « ان اللغة العربية التى يعترف الخبراء في كونها اقرب من جميع اللغات السامية الى اللغة الام الاصلية التى اشتقت

(15) الدكتور احمد سوسة (مقدمة كتابه المذكور)

(16) ادولف ارمان « ديانة مصر القديمة » الترجمة العربية ص 29 - 314 (نقلا عن كتاب العرب واليهود في التاريخ) « المقدمة »

(17) الدكتور على حسنى الخربوطى « العرب والحضارة » ص 13 .

(18) العتاد - « اثر العرب في الحضارة الاوربية » القاهرة 1960 ص 11 .